مقدّمة

الحمد لله الذى لاتدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير ، تفرد بالجلال والكمال ، وعز بعلو وحدانيته ، وتنزه عن النظير ، وهو السميع البصير . والصلاة والسلام على البشير النذير ، سيدنا محمد بن عبد الله الذى أرسله الله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وتركنا على المحجة البيضاء ، ليلها كنهارها ، وعلى آله وصحبه مصابيح الدجى وكواكب الأبراج ، ورضى الله عنهم أجمعين ، وجعلنا فى زمرتهم يوم لاينفع مال ولابنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وبعد - ففى هذا العصر الذى أخذت فيه الأرض زخرفها ، وازينت بالعناصر المادية ، وقامت فيها الحضارة الأوربية على المنهج الحسى المادى ، لاتكاد تعترف بغيره ، مازال فى البيئات الإسلامية - ولله الحمد - طوائف من أصحاب الفطر السليمة ، الذين يحبون من صميم قلوبهم أن تسلك الإنسانية طريقًا رحبًا إلى الخير ، ويضربون بأسهم متعددة فى عالم الروح ، عالم الإيثار والإخاء ، عالم المعرفة الحقة ، القائمة على أساس من صفاء الروح وطهارة القلب ونقاء السريرة ، والإخلاص لله الواحد القهار .

وهذا العالم المثالى تنبع أصوله من وحى السماء ، ويسير أفرادًا وجماعات إلى تحقيق المنهج الإلـهى والمبادئ الإلـهية .

وقد سلك هذا المسلك كثير من أعلام الصوفية ، فكانوا مصابيح يقتدى بهم ، ويُسار على مارسموا ، وقد مثلوا ذلك واقعًا فى حياتهم ، فكانت حياتهم منهجًا وموضوعًا تتمثل فيه التربية الإلـهية وهدى الرسول الكريم ، ﷺ ،فيما عظم من الأمور ، وفيما هو سهل ميسور ، وهم يحاولون جهدهم أن يكونوا ورثة الأنبياء علمًا وسلوكًا ومقامات .

ومن هؤلاء الأفراد الأعلام ، القطب العظيم ، العارف بالله ، القدوة المحقق ، تاج العارفين ، ولسان المتكلمين ، حجة السلف وإمام الخلف ،

تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندرى ، رضى الله عنه وأرضاه ، ونفعنا به ، ونفع به المسلمين كافة آمين ، إنه سميع مجيب الدعاء .

هذا الإمام الكبير نشأ فى الإسكندرية ، وبها تلقى ثقافته الأولى ، وكان مالكى المذهب . ويذكر بعض من عاشروه أنه كان يحسن النظر فى مذهبى الإمامين مالك والشافعى .

وتاريخ ابن عطاء الله يتصل اتصالاً وثيقًا بتاريخ الحركة الفكرية وتاريخ التصوف فى مصر فى القرنين السادس والسابع الهجريين ، فقد ولد فى سنة (٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م) وتوفى فى جمادى الآخرة سنة (٧٠٩ هـ - ١٣٠٩ م) وابن عطاء نموذج وحده بين المتصوفة ، فقد جمع علوم الظاهر وعلم الحقيقة ، وبرز فيها جميعًا .

ولما استكمل علوم الظاهر كان ينكر على المتصوفين طريقتهم وعلومهم ، وما إن أتيحت له الفرصة وتعرف على القطب الربانى أبى العباس المرسى ، حتى اهتدى بهديهم وآمن بطريقتهم ، واعترف بعلومهم ، بل صار التلميذ المفضل لأبى العباس المرسى . ثم ساعدته العناية فصار واحدًا من كبار المتصوفين ، ومن المشار إليهم بالبنان .

ويذكر ابن عطاء قصة تعرفه بأبى العباس ، فيقول كما جاء فى كتابه « لطائف المنن » :

كنت لأمره - أى أبى العباس - من المنكرين ، وعليه من المعترضين ، لا لشىء سمعته منه ، ولا لشىء صح نقله عنه ، حتى جرت بينى وبين بعض أصحابه مقاولة ، وذلك قبل صحبتى إياه ، وقلت لرجل منهم ، ليس إلا أهل العلم بالظاهر ، وهؤلاء القوم يدعون أمورًا عظيمة ، ظاهر الشرع يأباها ، ثم قلت فى نفسى ، دعنى أذهب إلى هذا الرجل وأنظر فى شأنه فصاحب الحق له أمارات لاتخفى ، فأتيت مجلسه فوجدته يتكلم فى الأنفاس التى أمر الشارع بها فقال :

« الأول إسلام ، والثانى إيمان ، والثالث إحسان .

وإن شئت قلت الأول عبادة ، والثانى عبودية ، والثالث عبودة .

وإن شئت قلت : الأول شريعة ، والثانى حقيقة ، والثالث تحقق .

فمازال يقول : وإن شئت قلت ، وإن شئت قلت ، إلى أن بهر عقلى ، وعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض بحر إلهى ومدد ربانى ، فأذهب الله ماكان عندى » .

ويستطرد ابن عطآء الله فى قصته مع الشيخ أبى العباس فيقول :

« ثم أتيت إلى المنزل فوجدت معنى غريبًا لا أدرى ماهو ، فانفردت فى مكان أنظر إلى السماء وإلى كواكبها وماخلق الله فيها من عجائب قدرته ، فحملنى ذلك على العودة إليه مرة أخرى .

فأتيته فاستؤذن لى عليه ، فلما دخلت عليه قام قائمًا . وتلقانى ببشاشة وإقبال ، حتى دهشت خجلاً ، واستصغرت نفسى أن أكون أهلاً لذلك ، فكان أول ماقلت له : ياسيدى أنا والله أحبك ، فقال أحبك الله كما أحببتنى .

ثم شكوت إليه ماأجده من هموم وأحزان فقال :

« أحوال العبد أربع لا خامس لها : النعمة ، والبلية ، والطاعة ، والمعصية .

فإن كنت بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر ، وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر ، وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك الاستغفار ، وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود مننه عليك فيها » .

فقمت من عنده وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوبًا نزعته . ثم سألنى بعد ذلك بمدة ، كيف حالك ؟ فقلت : أفتش عن الهم فما أجده ، فقال : الزم ، فوالله إن لزمت لتكونن فقيها فى المذهبين ، يريد مذهب أهل الشريعة من أصحاب العلوم الظاهرة ومذهب أهل الحقيقة من أصحاب علوم الباطن » .

وهذا الحديث هو الذى رفع عن عينى ابن عطاء الله الغشاوة ، وعلمه أن طريق القوم طويل وذو مراحل يسميها المتصوفون « درجات السلوك » ، وأول هذه الدرجات - كما كان يشرح أبو العباس - الإسلام ، وهو الطاعة والانقياد والقيام بفروض الشريعة ، ثانيها الإيمان ، وهو مقام معرفة حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية ومقتضيات الربوبية ، ثالثها الإحسان ، وهو مقام شهود الحق تعالى بالقلب .

أدرك ابن عطاء الله أن لكل سالك درجة ، وبقدر مايرقى السالك فى هذا

الطريق بقدر مايحصل له من السعادة التى تنشأ عن معرفة الله سبحانه وتعالى والفناء فى حبه .

وكان لهذا أثره فى حياة ابن عطاء الله وفكره وإنتاجه .

وبعد وفاة أبى العباس انتقلت إليه زعامة الطريقة الشاذلية ، وجلس مجلس أستاذه يلقى المواعظ ، ويفسر القرآن تفسيرًا صوفيًّا ، وانتقل إلى القاهرة ، واتخذ مجلسًا فى الأزهر يلقى فيه الدروس ، ويشرح آداب التصوف وتعاليمه .

وابن عطاء الله إلى جانب هذا أديب حلو الحديث ، مشرق العبارة . ولهذا كان لدروسه أثر كبير فى النفوس ، وقد أجمع المؤرخون له على وصف أسلوبه بالحلاوة وسحر التأثير والجلالة ، ويبدو ذلك واضحًا فى كتابه المشهور الذى بين أيدينا « الحكم العطائية » .

ولما سمع به السلطان حسام الدين لاجين شاقه أن يراه ويستمع إليه ، فاستدعاه إليه .

ويروى ابن عطاء خبر هذه المقابلة ، وطرفًا من المواعظ التى ألقاها فى حضرة السلطان قال :

« لما اجتمعت بالسلطان ، الملك لاجين رحمه الله – قلت له :

يجب عليكم الشكر لله ، فإن الله قرن دولتكم بالرخاء وانشرحت قلوب الرعايا بكم ، والرخاء أمر لايستطيع الملوك تكسبه ولا استجلابه كما يتكسبون العدل والجود والعطاء .

قال السلطان : وما الشكر ؟ قلت الشكر على ثلاثة أقسام : شكر باللسان ، وشكر بالأركان ، وشكر بالجنان .

فشكر اللسان التحدث بالنعم ، قال تعالى : (وأما بنعمة ربك فحدث) وشكر الأركان العمل بطاعة الله تعالى ، قال تعالى : (اعملوا آل داود شكرًا) .

وشكر الجنان الاعتراف بأن الله وحده هو المنعم ، قال تعالى : (ومابكم من نعمة فمن الله) .

فقال السلطان : ومالذى يصير به الشاكر شاكرًا قلت : « إذا كان ذا علم فبالتبيين والإرشاد ، وإذا كان ذا غنى فبالبذل والإيثار للعباد ، وإن كان ذا جاه

فبإظهار العدلِ فيهم ودفع الإنكار » .

بهذا الأسلوب المشرق الواضح المعبر ، المعتمد على الحكم والمنطق تحدث ابن عطاء الله عن الشكر للسلطان فاستطاع أن ينفذ إلى قلبه ، وأن يستحوذ على إعجابه .

وأسلوب ابن عطاء الله فى الحِكم بلغ الذروة القصوى من الإبداع والتركيز والتحليل ، وشرح آداب الطريقة ، وإن له فيها منهجًا خاصًّا ، فهو لايعنى بالمعنى وحده ، ولابالأسلوب وحده ، بل يرى أن للبيان سحرًا خاصًّا ، فكان يتخير الألفاظ ذات الجرس الخاص ، والنغم الموسيقى المؤثر ، لذا كان لحكمه سحر مؤثر فى نفوس قارئى الحِكم وسامعيها كما سيتجلى للقارئ فيما سيقرؤه من حكمه فى هذا الكتاب .

استمع إليه وهو يقول فى بعض حكمه :

« كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ؟
أم كيف يرحل إلى الله وهو قليل بشهواته ؟
أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يُطهر من جنبات غفلاته ؟
أم كيف يرجو أن يفهم الأسرار وهو لم يتب من هفواته ؟ » .

ثم هو كذلك يراعى التدرج فى تفصيل أجزاء الحكمة والحقيقة التى يشرحها .

وإليك هذه الحكمة الأخرى من حكمه :

« كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى أظهر كل شىء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى ظهر بكل شىء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى ظهر فى كل شىء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو أظهر من كل شىء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الواحد ليس معه شىء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو أقرب إليك من كل شىء ؟
كيف يتصور أن يحجبه شىء ولولاه ماكان وجود شىء ؟ » .

ومما يتميز به ابن عطاء الله من غيره من المتصوفة أنه كان يعتز بهذه المعرفة ، ويخشى أن يحجب عن سلوك طريق القوم والمضى معهم والقربى من شيخه

أبى العباس ، وظل مضطربًا إلى أن أخذ الشيخ بيده ، وطمأنه بأنه يستطيع أن يجمع بين العلمين ، علم الظاهر وعلم التصوف ، ثم قال له الشيخ : والله ليكونن لك شأن عظيم .

قال ابن عطاء الله : فكان من فضل الله سبحانه مالا أنكره ، وهكذا تحققت نبوءة الشيخ ، وأصبح لابن عطاء الصدارة فى العلمين ، وآلت إليه رئاسة الطريقة بعد موت شيخه أبى العباس ، وأصبح له فى الأزهر درس خاص بالتلاميذ والمريدين ، يملى فيه دروسه فى الفقه والتفسير والتصوف وآدابه ، وكان لأسلوبه فى الشرح حلاوة وتأثير على السامعين كما قلت سابقًا .

وتوفى ابن عطاء الله فى القاهرة فى جمادى الآخرة سنة (٧٠٩ هـ - ١٣٠٩ م) ودفن فى القرافة الصغرى ، وقبره معروف حتى اليوم ، تحت جبل المقطم من الجهة الشرقية لجبانة الإمام الليث .

ولابن عطاء الله مؤلفات كثيرة منها :

« التنوير فى إسقاط التدبير »

« مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح »

« تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس »

« الحكم العطائية »

ويقوم كتاب الحكم على دعائم أربع :

- الأولى : علم التذكير والوعظ .
- التانية : تصفية الأعمال وتصحيح الأحوال .
- الثالثة : تحقيق الأحوال والمقامات .
- الرابعة المعارف والعلوم الإلهية .

ثم ختمه بطائفة من المناجاة للكريم الوهاب و « الحكم العطائية » التى نقدمها اليوم للقراء ، قام بشرحها شرحًا وافيًا العارف بالله : أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى .

وآثرنا نشر هذا الشرح لما فيه من الزاد لكل مسلم ، يحب أن تصفو روحه ، وتسمو إلى الآفاق الروحانية، فيتخلص من كدر الجسم وظلمته، ويحظى بنور المعرفة الحقة ، فيصل إلى ماوصل إليه القوم من كمال روحى ، ويحلق معهم فى

الآفاق القدسية إذا تأدب بأدبهم وسلك طريقهم التى رسمها ابن عطاء الله فى حكمه ، وجلاها ابن عجيبة بشرحه وتبيانه ، وأضفى عليها من سمو روحه وجعلها بغزارة علمه ومعرفته بطرائق القوم وإشاراتهم نبراسًا لذوى الألباب .

ولاغرابة فى ذلك ، فابن عجيبة من الواصلين الذين عاشوا حياة الصوفية ، وأدركوا مراميهم عن كثب ، وأفادوا من علمهم الغزير ، وفيوضاتهم الربانية ، فهو ابن بجدتها ، والسابق السابح فى بحار المحبين الغائص على دررهم والمستخرج لكنوزهم ، وقد أودع كل ذلك هذا السفر الجليل الذى سماه « إيقاظ الهمم فى شرح الحكم » .

وإنه بحق درة من درر التصوف ، يهديها ابن عجيبة ونهديها معه ، إلى شباب هذا الجيل المحبين للخير ، والراغبين فى المعرفة النافعة .

عملنا فى هذا الكتاب :

وقد راجعنا هذه النسخة مراجعة دقيقة ، وقوبلت على أكثر من نسخة وأصلحنا مابها من أخطاء وحققنا الآيات القرآنية ، وأشرنا إلى مواضعها فى سورها وأرقامها فى تلك السور .

ثم راجعنا الأحاديث على أصولها ، وقد جهدنا أن يخرج الكتاب فى صورة تروق القارئ ، وتعينه على قراءته فى سهولة ويسر .

ونسأل الله العلى القدير أن ينفع بهذا الشرح الجليل المحبين الصادقين . ويجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم إنه سميع مجيب .

ربيع الأول ١٤٠٤ هـ - ديسمبر ١٩٨٣ م

محمد حسب الله

Obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

(يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاء ، وَمَنْ يُؤتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

(قرآن كريم)

يقول العبد الفقير إلى مولاه الغنى به عما سواه ، أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى ، لطف الله به وحباه :

إن أولى ماعقِد عليه الجَنان ، ونطقَت به ألسنة الفصاحة والبيان ، وخطَّت به أقلام البنان ، حمد الفتّاح العليم الكريم المنّان .

الحمد لله الذى ملأ قلوب أوليائه بمحبته ، واختص أرواحهم بشهود عظمته ، وهيأ أسرارهم لحمل أعباء معرفته ، فقلوبهم فى روضات جناتِ معرفته يحبرون ، وأرواحُهم فى رياض ملكوته يتنزّهون ، وأسرارُهم فى بحار جبروته يسبحون ؛ فاستخرجت أفكارهم يواقيت العلوم ، ونطقت ألسنتهم بجواهر الحِكم ونتائج الفهوم ، فسبحان من اصطفاهم لحضرته ، واختصهم بمحبته ، فهم بين سالك ومجذوب ، ومحب ومحبوب ، أفناهم فى محبة ذاته ، وأبقاهم بشهود آثار صفاته .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد منبع العلوم والأنوار ، ومعدن المعارف والأسرار ، ورضى الله تعالى عن أصحابه الأبرار ، وأهل بيته الأطهار .

أما بعد – كل شىء وقبله ومعه : فعلم التصوف من أجل العلوم قدرًا وأعظمها محلًّا وفخرًا ، وأسناها شمسًا وبدرًا ، وكيف لاوهو لُباب الشريعة ، ومنهاج الطريقة ، ومنه تشرق أنوار الحقيقة ، وكان أعظم ماصنّف فيه [الحكم العطائية] التى هى مواهب لدنية وأسرار ربانية ، نطقت بها أفكار قدّوسية ، وأسرار جبروتية ، ولقد سمعت شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه يقول : سمعت الفقيه البنّانى يقول : كادت حكم ابن عطاء الله أن تكون وحيًا ؛ ولو

كانت الصلاة تجوز بغير القرآن لجازت بكلام الحكم أو كما قال .

ولقد طلب منى شيخنا العارف الواصل المحقق الكامل سيدى محمد البوزيدى الحسنى أن أضع عليها شرحًا متوسطًا يبين المعنى ، ويحقق المبنى ، معتمدًا فى ذلك على حول الله وقوته ، ومايفتح الله به من خزائن علمه وحكمته ، أو ماكان مناسبًا لتلك الحكمة من كلام القوم . فأجبت طَلِبَته ، وأسعفت رغبته ؛ رجاء أن يقع به الإمتاع ، ويعم به الانتفاع .

(وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)[1]

وسميته [**إيقاظ الهمم فى شرح الحكم**] جعله الله خالصًا لوجهه العظيم ، بجاه نبينا المصطفى الكريم ، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم .

ولنقدم بين يدى الكتاب مقدمتين : إحداهما فى حد التصوف ، وموضوعه ، وواضعه ، واسمه ، واستمداده ، وحكم الشارع فيه ، وتصور مسائله ، وفضيلته ، ونسبته ، وثمرته . والمقدمة الثانية فى ترجمة الشيخ وذكر محاسنه .

تعريفات التصوف :

أما حده : فقال الجنيد :

هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به . وقال أيضًا : أن تكون مع الله بلا علاقة .

وقيل : الدخول فى كل خُلُق سَنِىّ ، والخروج من كل خلق دنىّ .

وقيل : هو أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم مع قوم كرام .

وقيل : ألا تملك شيئًا ولايملكك شىء .

وقيل استرسال النفس مع الله على مايريد .

وقيل التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التدبير والاختيار .

وقيل الأخذ بالحقائق ، والإياس مما فى أيدى الخلائق . وقيل ذِكْرٌ مع

---

(١) هود : ٨٨ .

اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع .

وقيل الإناخة على باب الحبيب وإن طُرد . وقيل صفوة القرب بعد كدرة البعد . وقيل الجلوس مع الله بلا هَمّ ، وقيل هو العصمة عن رؤية الكون .

والصوفى الصادق : علامته أن يفتقر بعد الغنى ، ويذل بعد العز ، ويَخْفى بعد الشهرة .

وعلامة الصوفى الكاذب : أن يستغنى بعد الفقر ، ويعز بعد الذّل ، ويشتهر بعد الخفاء . قاله أبو حمزة البغدادى :

وقال الحسن بن منصور : الصوفى واحد فى الذات لايقبله أحد ، ولايقبل أحدًا .

وقيل الصوفى كالأرض يطرح عليه كل قبيح ، ولايخرج منه إلا كل مليح ، ويطؤه البر والفاجر .

وقالوا : من أقبح كلِّ قبيح صوفى شحيح . وقال الشّبلى : الصوفى منقطع عن الخلق ، متصل بالحق ، لقوله تعالى : (وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى)[1]

ثم قال أيضًا : الصوفية أطفال فى حِجْر الحق .

وقيل الصوفى لاتقله الأرض ولاتظله السماء ، يعنى لايحصره الكون .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : قد حدّ التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين ، ترجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى ، وإنما هى وجوه فيه ، والله أعلم . ثم قال : والاختلاف فى الحقيقة الواحدة إن كثر دلّ على بُعد إدراك جملتها ، ثم هو إن رجع لأصل واحد يتضمن جملة ماقيل فيها كانت العبارة عنه بحسب مافهم منه ، وجملة الأقوال واقعة على تفاصيله ، واعتبار كل واحد على حسب مثاله علمًا وعملاً وحالاً وذوقًا وغير ذلك ، والاختلاف فى التصوف من ذلك ، فمن أجل ذلك ألحق الحافظ أبو نعيم ، رحمه الله ، بغالب أهل حليته عند تحلية كل شخص قولا من أقوالهم يناسب حاله قائلا : وقيل إن التصوف كذا ، فاقتضى أن كل من له نصيب من صدق التوجه له نصيبٌ من

---

(١) سورة طه : ٤١ .

التصوف ، وأن تصوف كل أحد صدق توجهه فافهم اهـ .

وقال أيضًا : قاعدة . صدق التوجه مشروط بكونه من حيث يرضاه الحق تعالى وبما يرضاه ، ولايصح مشروط بدون شرطه :

(وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ) فلزم تحقيق الإيمان (وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لكُمُ)[1] .

فلزم العمل بالإسلام ، فلا تصوف إلابفقه ، إذ لاتعرف أحكام الله تعالى الظاهرة إلا منه ، ولافِقْه إلا بتصوف ، إذ لا عمل إلا بصدق توجه ، ولا همًّا إلا بإيمان ، إذ لايصح واحد منهما بدونه فلزم الجمع ، لتلازمهما فى الحكم كتلازم الأرواح للأجساد ، إذ لا وجود لها إلا فيها كما لا كمال لها : أى للأشباح ، إلا بها .

ومنه قول مالك رحمه الله : « من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسَّق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق » .

قلت : تزندق ، الأول ، لأنه قائل بالجبر الموجب لنفى الحكمة والأحكام ، وتفسَّق الثانى ، لخلو علمه عن صدق التوجه الحاجز عن معصية الله عن الإخلاص المشروط فى الأعمال ، وتحقق الثالث لقيامه بالحقيقة فى عين تمسكه بالحق، فاعرف ذلك، إذ لاوجود لها إلا فيها، كما لاكمال له إلا به فافهم اهـ.

موضوع التصوف :

هو الذات العلية ، لأنه يبحث عنها باعتبار معرفتها إما بالبرهان ، أو بالشهود والعيان ، فالأول للطالبين ، والثانى للواصلين .

وقيل : موضوعه النفوس والقلوب والأرواح ، لأنه يبحث عن تصفيتها وتهذيبها ، وهو قريب من الأول ، لأن من عرف نفسه عرف ربه .

واضع هذا العلم :

هو النبى ﷺ ، علمه الله له بالوحى والإلهام ، فنزل جبريل عليه السلام

---

(١) الزمر : ٧ .

أولا بالشريعة ، فلما تقررت نزل ثانيًا بالحقيقة ، فخص بها بعضا دون بعض .

وأول من تكلم فيه وأظهره سيدنا على كرم الله وجهه ، وأخذه عنه الحسن البصرى ؛ وأمه اسمها خيرة مولاة لأم سلمة زوج النبى ﷺ ، وأبوه مولى زيد ابن ثابت . توفى الحسن سنة عشر ومائة . وأخذه عن الحسن حبيب العجمى . وأخذه عن حبيب أبو سليمان داود الطائى . توفى سنة ستين ومائة . وأخذه عن داود أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخى رضى الله عنه . وأخذه عن معروف الكرخى أبو الحسن سرىّ بن مغلس السقطى . توفى سنة إحدى وخمسين ومائة . وأخذه عن السرىّ إمام هذه الطريقة ، ومظهر أعلام الحقيقة أبو القاسم محمد بن الجنيد الخزّاز ، أصله من نهاوند ، ومنشؤه العراق . تفقه على أبى ثور ، وصحب الشافعى ، فكان يفتى على مذهب أبى ثور . ثم صحب خاله السرىّ وأبا الحارث المحاسبى وغيرهما ، وكلامه وحقائقه مدونان فى الكتب . توفى رضى الله عنه سنة سبع وتسعين ومائتين ، وقبره ببغداد مشهور يزار ، ثم انتشر التصوف فى أصحابه وهلم جرّا ، ولاينقطع حتى ينقطع الدين .

ومن رواية أخرى أخذه عن سيدنا على رضى الله عنه . أول الأقطاب سيدنا الحسن ولده ، ثم عنه أبو محمد جابر ، ثم القطب سعيد الغزوانى ، ثم القطب فتح السعود ، ثم القطب سعد ، ثم القطب سعيد ثم القطب سيدى أحمد المروانى ، ثم إبراهيم البصرى ثم زين الدين القزوينى . ثم القطب شمس الدين ، ثم القطب تاج الدين ، ثم القطب نور الدين أبو الحسن ، ثم القطب فخر الدين ، ثم القطب تقى الدين الفُقَيْر بالتصغير فيهما ، ثم القطب سيدى عبد الرحمن المدنى ، ثم القطب الكبير مولاى عبد السلام بن مشيش ، ثم القطب الشهير أبو الحسن الشاذلى ، ثم خليفته أبو العباس المرسى ، ثم العارف الكبير سيدى أحمد بن عطاء الله ، ثم العارف الكبير سيدى داود الباخلى ، ثم العارف سيدى محمد بحر الصفا ، ثم العارف ولده سيدى على بن وفا ، ثم الولى الشهير سيدى يحيى القادرى ، ثم الولى الشهير سيدى أحمد بن عقبة الحضرمى ، ثم الولى الكبير سيدى أحمد زروق ، ثم سيدى إبراهيم أفحام ، ثم سيدى على الصنهاجى المشهور بالدوار ، ثم العارف الكبير سيدى ابن عبد الرحمن المجذوب ، ثم الولى الشهير سيدى يوسف الفاسى ، ثم

العارف سيدى عبد الرحمن الفاسى ، ثم العارف سيدى محمد بن عبد الله ، ثم العارف سيدى قاسم الخصاصى ، ثم العارف سيدى أحمد بن عبد الله ، ثم العارف سيدى العربى ابن عبد الله ، ثم العارف الكبير سيدى على بن عبد الرحمن العمرانى الحسنى ، ثم العارف الشهير شيخ المشايخ سيدى ومولاى العربى الدرقاوى الحسنى ، تم العارف الكامل المحقق الواصل شيخنا سيدى محمد بن أحمد البوزيدى الحسنى ، ثم عبد ربه وأقلّ عبيده أحمد بن محمد بن عجيبة الحسنى ، تم عنه خلق كثير والمنة لله العلى الكبير .

اسمه : علم التصوف :

واختُلف فى اشتقاقه على أقوال كثيرة ، ومرجعها إلى خمس :

أولهـــا : أنه من الصوفة ، لأنه مع الله كالصوفة المطروحة لاتدبير له .

الثـانى : من صوفة القفا للينها ، فالصوفى هين لين كهى .

الثالث : أنه من الصفة إذ جملته اتصاف بالمحامد وترك الأوصاف المذمومة .

الرابع : أنه من الصفاء ، وصحح هذا القول حتى قال أبو الفتح البستى رحمه الله فى الصوفى :

تَخَالَفَ النَّاسُ فى الصُّوفِى وَاخْتَلَفُوا جَهْلاً وَظَنُّوهُ مُشْتَقًّا مِنَ الصُّوفِ
وَلَسْتُ أَمْنَحُ هٰذَا الاسْمَ غير فَتَىً صَافَى فَصُوفِى حَتَّى سُمِّىَ الصُّوفِى

الخامس : أنه منقول من صفّة المسجد النبوى الذى كان منزلا لأهل الصفّة ، لأن الصوفى تابع لهم فيما أثبت الله لهم من الوصف حيث قال : (وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ)[1] .

وهو الأصل الذى يرجع إليه كل قول فيه قاله الشيخ زروق رحمه الله .

استمداده : هو مستمد من الكتاب والسنة وإلهامات الصالحين وفتوحات

---

(١) الكهف : ٢٨ .

العارفين ، وقد أدخلوا فيه أشياء من علم الفقه لمسّ الحاجة إليه فى علم التصوف ، حررها الغزالى فى الإحياء فى أربعة كتب : كتاب العبادات وكتاب العادات ، وكتاب المهلكات ، وكتاب المنجيات ، وهو فيه كمال لاشرط إلا مالابد منه فى باب العبادات . والله تعالى أعلم .

حكم الشارع فيه : قال الغزالى : إنه فرض عين ، إذ لايخلو أحد من عيب أو مُرض إلا الأنبياء عليهم السلام .

وقال الشاذلى : من لم يتغلغل فى علمنا هذا مات مصرًّا على الكبائر وهو لايشعر ، وحيث كان فرض عين يجب السفر إلى من يأخذه عنه إذا عرف بالتربية واشتهر الدواء على يده وإن خالف والديه ، حسبما نص عليه غير واحد : كالبلالى والسنوسى وغيرهما . قال الشيخ السنوسى : النفس إذا غلبت كالعدو إذ فَجأً تجب مجاهَدتُها والاستعانة عليها وإن خالف الوالدين ، كما فى العدو إذا برز ، قاله فى شرح الجزيرى ، وما أحسن قول القائل :

أَخَاطِرُ فِى مَحَبَّتِكُمْ بِرُوحِى ... وَأَرْكَبُ بَحْرَكُمْ إِمَّا وإِمَّا
وَأَسْلُكُ كُلَّ فَجٍّ فِى هَوَاكُمْ ... وَأَشْرَبُ كَأْسَكُمْ لَوْ كَانَ سُمَّا
وَلا أُصْغِى إِلى مَنْ قَدْ نَهَانِى ... وَلِى أُذُنٌ عَنِ الْعُذَّالِ صَمَّا
أُخَاطِرُ بِالخَوَاطِرِ فِى هَوَاكُمْ ... وَأَتْرُكُ فِى رِضَاكُمْ أَبًا وأُمَّا

مسائله : هى معرفة اصطلاحاته والكلمات التى تتداول بين القوم : كالإخلاص ، والصدق والتوكل ، والزهد ، والورع ، والرضا ، والتسليم والمحبة ، والفناء ، والبقاء وكالذات ، والصفات ، والقدرة ، والحكمة ، والروحانية ، والبشرية ، وكمعرفة حقيقة الحال والوارد والمقام ، وغير ذلك .

وقد ذكر القشيرى فى أول رسالته جملة شافية ، وقد كنت جمعت كتابًا فيه مائة حقيقة من حقائق التصوف ، سميتهُ [**معراج التشوف إلى حقائق التصوف**] فليطالعه من أراده ليستعين به على فهم كلام القوم . تم قلت : بل

التحقيق فى مسائل هذا العلم أنها القضايا التى يبحث عنها السالك فى حال سيره ليعمل بمقتضاها ، ككون الإخلاص شرطًا فى العمل ، وكون الزهد ركنًا فى الطريق ، وكون الخلوة والصمت مطلوبين ، وأمثال هذه القضايا ، فهى مسائل هذا الفن ، فينبغى تصورها قبل الشروع فى الخوض فيه علمًا وعملا ، والله تعالى أعلم .

فضيلته : تقدم أن موضوعه الذات العلية ، وهى أفضل على الإطلاق ؛ فالعلم الذى يتعلق بها أفضل على الإطلاق ، إذ هو دال بأوله على خشية الله تعالى ، وبوسطه على معاملته ، وبآخره على معرفته والانقطاع إليه ، ولذلك قال الجنيد :

لو نعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذى نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه .

وقال الشيخ الصقلى رضى الله عنه فى كتابه المسمى « أنوار القلوب فى العلم الموهوب » .

قال : وكل من صدق بهذا العلم فهو من الخاصة ، وكل من فهمه فهو من خاصة الخاصة ، وكل من عبر عنه وتكلم فيه فهو النجم الذى لايدرك والبحر الذى لاينزَف .

وقال آخر : إذا رأيت من فتح له فى التصديق بهذه الطريقة فبشره ، وإذا رأيت من فتح له فى الفهم فيه فاغتبطه ، وإذا رأيت من فتح له فى النطق فيه فعظمه ، وإذا رأيت منتقدًا عليه ففرّ منه فرارك من الأسد واهجره ؛ وما من علم إلا وقد يقع الاستغناء عنه فى وقت ماإلا علم التصوف فلا يستغنى عنه أحد فى وقت من الأوقات .

نسبته من العلوم : هو كلى لها وشرط فيها ، إذ لاعلم ولاعمل إلا بصدق التوجه إلى الله تعالى ، فالإخلاص شرط فى الجميع ، هذا باعتبار الصحة الشرعية والجزاء والثواب . وأما باعتبار الوجود الخارجى ؛ فالعلوم توجد فى الخارج بدون التصوف ، لكنها ناقصة أو ساقطة ، ولذلك قال السيوطى : نسبة التصوف من العلوم كعلم البيان مع النحو ، يعنى هو كمال فيها ومحسّن لها .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : نسبة التصوف من الدين نسبة الروح من الجسد ؛ لأنه مقام الإحسان الذى فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : « أن تعبد الله كأنك تراه »[1] الحديث ، إذ لامعنى له سوى ذلك ، إذ مداره على مراقبة بعد مشاهدة ، أو مشاهدة بعد مراقبة ، وإلا لم يقم له وجود ويظهر له موجود فافهم اهـ .

ولعله أراد بالمراقبة بعد المشاهدة الرجوع للبقاء بشهود الأثر بالله .

فائدته : تهذيب القلوب ومعرفة علام الغيوب ، أو تقول : ثمرته سخاوة النفوس ، وسلامة الصدور ، وحسن الخلق مع كل مخلوق .

واعلم أن هذا العلم الذى ذكرنا ليس هو اللقلقة باللسان ، وإنما هو أذواق ووجدان ، ولايؤخذ من الأوراق ، وإنما يؤخذ من أهل الأذواق ، وليس ينال بالقيل والقال ، وإنما يؤخذ من خدمة الرجال ، وصحبة أهل الكمال ، والله ماأفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح ، وبالله التوفيق .

أما ترجمة الشيخ : فهو الشيخ الإمام تاج الدين ، وترجمان العارفين ، أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين ابن عطاء الله ، الجذامى نسبًا ، المالكى مذهبًا ، الإسكندرى دارًا ، القرافى مزارًا ، الصوفى حقيقة ، الشاذلى طريقة ، أعجوبة زمانه ، ونخبة عصره وأوانه ، المتوفى فى جمادى الآخرة سنة تسع بتقديم التاء وسبعمائة . قاله الشيخ زروق .

وقال فى الديباج المذهب : كان جامعًا لأنواع العلوم ، من تفسير وحديث وفقه ونحو وأصول ، وغير ذلك . كان رحمه الله متكلمًا على طريق أهل التصوف واعظًا ، انتفع به خلق كثير ، وسلكوا طريقه . قلت : وقد شهد له شيخه أبو العباس المرسى بالتقديم . قال فى لطائف المنن :

قال لى الشيخ : الزم فوالله لئن لزمت لتكونن مفتيًا فى المذهبين : يريد مذهب أهل الشريعة أهل العلم الظاهر ، ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن وقال فيه أيضًا : والله لايموت هذا الشاب حتى يكون داعيًا يدعو إلى الله . وقال

---

(١) هذا جزء من حديث طويل رواه البخارى فى كتاب الإيمان .

فيه أيضًا : والله ليكونن لك شأن عظيم ، والله ليكونن لك شأن عظيم . قال فكان بحمد الله ما لا أنكره .

وله من التآليف خمسة : التنوير فى إسقاط التدبير ، ولطائف المنن فى مناقب شيخه أبى العباس ، وشيخه أبى الحسن ، وتاج العروس وهو مؤلف منهما ، ومفتاح الفلاح فى الذكر ، وكيفية السلوك . وله أيضا : القول المجرد فى الاسم المفرد ، والحكم الذى أردنا أن نتكلم عليه .

ومضمنه من علوم القوم أربعة :

الأول : علم التذكير والوعظ ، وقد حاز منه أوفر نصيب ، وهو لمقام العوام ، وتستفاد مواده من كتب ابن الجوزى ، وبعض تآليف المحاسبى ، وصدور كتب الإحياء ، والقوت ، وتحبير القشيرى وماجرى مجراها ، والله أعلم .

الثانى : تصفية الأعمال وتصحيح الأحوال ، بتحلية الباطن بالأخلاق المحمودة ، وتطهيره من الأوصاف المذمومة ، وهذا حظ المتوجهين من الصادقين والمبتدئين من السالكين ، وقد حاز منها جملة صالحة ، ومادتها من كتب الغزالى ، والسهروردى ونحوهما .

الثالث : تحقيق الأحوال والمقامات ، وأحكام الأذواق والمنازلات ، وهو نصيب المستشرفين من المريدين والمبتدئين من العارفين . وهذا النوع من أكثر ماوقع فيه ومادته ، من مثل كتب الحاتمى فى المعاملات ، والبونى فى المنازلات ، إلى غير ذلك .

الرابع : المعارف والعلوم الإلهامية ، وفيه منها ما لا يخفى ، لكن كتبه ملئت بشرحها لاسيما التنوير ولطائف المنن اللذان هما كالشرح لجملة هذا الكتاب .

وبالجملة فهو جامع لما فى كتب الصوفية المطولة والمختصرة ، مع زيادة البيان واختصار الألفاظ ، والمسلك الذى سلك فيه مسلك توحيدى لايسع أحدًا إنكاره ولا للطعن فيه ، ولا يدع للمعتنى به صفة حميدة إلا كساه إياها ، ولاصفة ذميمة إلا أزالها عنه بإذن الله ، كما قال الشيخ ابن عباد فى وصف التنوير ، وهما أخوان من أب واحد وأم واحدة قاله سيدى أحمد زروق فى بعض شروحه .